المحاضرة الثالثة: أهم التناولات النظرية حول الصدمة

محتوي المحاضرة:

مقدمة

التناول التحليلي للصدمة النفسية

التناول السيكوسوماتي للصدمة النفسية:

أهداف المحاضرة:

تقديم وجهات النظر المختلفة التي تناولت المفهوم.

الأدوات المستعملة في المحاضرة:

مطبوعة المحاضرات.

الصبورة للشرح.

مقدمة:

سنتناول خلال المحاضرتين التاليتين أهم أربع توجهات نظرية تناولت مفهوم الصدمة وكذا تطوراته وهي تباعا زمنيا وتطوريا لهذا المفهوم.

1. التناول التحليلي للصدمة النفسية:

حسب Brette (1987) يمكن تلخيص التناول التحليلي للصدمة من خلال انتقال Freud بين المحاور الثلاث التي انتظمت حولها نظريته وهي:

أ وجهة نظر الإغراء:في البداية وفي إطار تعميق النظرية الصدمية للعصابات وخاصة الهستريا، كان Freud يسلم بأن الصدمة دائما جنسية، تحدث نتيجة إغراء طفل من طرف راشد يصفه بالمنحرف، فكي تكون هناك صدمة لابد أن يكون هناك شخصين أحدهما راشد يحدث إنفجارا نزويا عند الآخر غير الناضج، والذي يجد نفسه في حالة سكون وسلبية وعدم تحضير هذه الصدمة لا تأخد معناها ولا أثر لها إلا في بعديتها (après coup)، فعند البلوغ وبمناسبة حدث ما قد يرتبط من قريب أو من بعيد بالحادث الأولي يتم إحياء آثار ذكرى هذا الحادث المكبوت ويعاش كصدمة(Brette, 1987, pp 9-14) .

ب وجهة نظر الهوام:سرعان ما فقد Freud إقتناعه بالحدوث الفعلي لمشهد الإغراء الجنسي، وأدى به ذلك إلى الوصول إلى مفهوم الهوام اللاشعوري والواقع النفسي، فانتقل إلى هوام الإغراء الذي يتشكل مبكرا جدا في علاقة الطفل بأمه. وبقي طوال إنجازاته مترددا بين إرجاع الصدمة

إلى مشهد الإغراء الفعلي من طرف الأب أو أي شخص راشد على طفل، أو إرجاعها إلى هوام الإغراء الذي يتكون في علاقة الطفل الأولية مع الأم (Brette, 1987, pp 9-14).

ج وجهة النظر الاقتصادية: حتى ولو أن Freud لم يقلل من أهمية السببية الجنسية الصدمية في العصابات فهذا لم يمنعه من العودة إلى فكرته الأولى حول الصدمة، عندما ربطها بكمية الطاقة النفسية النزوية التي تستثيرها الاعتداءات الآتية من الخارج. حيث كانت الحرب العالمية الأولى فرصة لتطوير هذه الفكرة، خاصة وأن تلك الفترة فرضت الاهتمام بما سمي عصابات الحرب (1916-1920) (Brette, 1987, pp 9-14). وأصبح يعرف الصدمة على أنها "كل استثارة خارجية بلغت من الشدة ما يجعلها تخترق الحاجز الحامي للجهاز النفسي (para-excitations)، فائقة بذلك تحمل الفرد وقدرته على الإرصان النفسي، محدثة استنفارا كبيرا في وسائل الدفاع، فيعاش بانفعالات مميزة وهي القلق والرعب (L'effroi) (Freud & Breur,1920 in Damiani, 1997, pp90-91)

كما قد يتعزز ذلك الاضطراب الذي تسببه كميات كهذه من الإستثارة إذا ما وجدت صدى لها في صراع نفسي، فيصبح من الممكن قراءة أعراض العصاب الصدمي كإحياء لصراع قديم غالبا ذو أصل جنسي وطفلي (Damiani, 1997, pp90-91,) .

بل وحسب Perron وبالرجوع إلى Freud الحدث الصدمي العنيف يحمله إلى الحياة النفسية للشخص، فإنه يعيد إلى الساحة الشعورية تلك الوضعيات الصدمية بطبيعتها والكامنة في بنية الشخصية، حيث يمر بها كل فرد حتميا أثناء نشأته النفسية والتي تبدأ بصدمة الولادة، ثم قلق فقدان الموضوع،التهديد بفقدان موضوع الحب، التهديد بالخصاء وقلق الموت (Perron, 1999/2000, p 12).

فليس العنف الميكانيكي للحدث الصدمي هو الصدمة بل الصدمي هو ذلك الرعب والوعي بالخطر المهدد للحياة أثناء تصادم عنيف مع الواقع، يجتاز الحياة النفسية بتصورات وهوامات تكونت مسبقا، فيعجز الفرد عن التحكم فيها. وما يميز الرعب عن القلق هو غياب التحضير والإستعداد لمواجهة الخطر، بحيث لا يتسنى للأنا تعزيز دفعاته لاحتواء الاستثارات الفائقة ..أي أن الجهاز النفسي في حالة الصدمة لا يتمكن من تحضير آخر خط دفاعي الذي هو القلق ويقع في حالة من الرعب والعجز،وبالتالي يفشل الأنا في الاستجابة لمبدأ اللذة ويترك المجال لنزعة التكرار كمحاولة دفاعية يائسة لإعادة التصور الهوامي للحدث بحثا عن التحكم والسيطرة بعد الفشل أول مرة، وذلك من خلال الأحلام الصدمية واستذكار المشهد الصدمي في اليقظة(Freud & Breur,1920 in Damiani, 1997, pp90-91.)

ويرى (1999) Perron انه على المدى البعيد هناك خطر حدوث هوة بين ضحية الصدمة ومحيطها، قد تصل لدى الأفراد الأكثر هشاشة إلى حد الاختلال الذهاني بحيث يلاحظ انتظام دفاعي وتوظيف نفسي متمحور حول الصدمة وكأنها شوكة أحدثت التهابا في الجسم. وهكذا يتشكل ما يسمى عصاب صدمي وهو مقاوم للعلاج لأنه يشكل دفاعا حيويا.

أما Frencszi فرغم انه أكد كما Freud على الاصل الجنسي للعصاب. إلا انه أعطى وزنا هاما للحدث الصدمي، حيث يرى أن الأحداث الصدمية يمكن أن تكون مسببة للرعب والاضطراب بقوتها الصدمة واعتبر إنكار الصدمة والصمت من أهم السياقات الصدمية خاصة عند الضحية القاصر. واستعمل مصطلح la commotion psychique للتعبير عن الصدمة النفسية أو الرض النفسي وعرفة على انه "إعدام أو إلغاء للشعور بالذات والقدرة على المقاومة والاستجابة والتفكير بهدف الدفاع عن الذات اتجاه حادث مفاجئ وعنيف". وفي العديد من أعماله وصف السياقات الصدمية التي يظهرها ضحايا الاعتداءات والكوارث، وهي السياقات التي تحدث انقطاعا بين الفرد ومحيطة وتدخله في عزلة وبلادة عاطفية، هذا الانقطاع يمكن أن يتجسد داخل الجهاز النفسي للفرد بالانشطار (Damiani, 1997, pp 90-91).

التناول التحليلي بصفة عامة يرى أن أخذ الحادث الخارجي معزولا لا يجعله بالضرورة صادما، ويعطي كل الأهمية لما يعرف بظاهر الصدى، بمعنى: ما يمكن إحياؤه من صدمات وصراعات قديمة لاشعورية، بسبب إستثارة فائقة تحتاج الجهاز النفسي، شدتها تكون كافية لإفشال الدفعات التي كانت فعالة من قبل. كما يبقى مصطلح الصدمة مصطلحا طبيا، تمت استعارته للتعبير عن اجتياز الدفعات النفسية للفرد وزعزعة تنظيمه النفسي، على شاكلة الاختراق الجسمي الذي تسببه الصدمات الجسمية.

كما انه مفهوم نسبي، حيث أن حدثا واحدا قد يكون صدميا بالنسبة للبعض وليس كذلك بالنسبة للبعض الآخر، هذه النسبية ترجع إلى صراع قوى بين كم الاستثارة التي يأتي بها الحدث الى الجهاز النفسي، وقوة دفاعات الشخص، كما أن هشاشة الفرد للصدمة لا تتوقف على سياق حدوثها فقط بل على مدى التحضير الدفاعي واستعداد الجهاز النفسي أو عدم استعداده.

أيضا هذا التناول يعطي أهمية لبعدية الصدمة ووجود زمن كمون بين لحظة التعرض للصدمة وبداية ظهور الاضطراب، حيث تتفاوت مدته من شخص إلى آخر (Cordier, Sylvester et Lurie, 1994, p1) ولقد تبنى العديد من السايكاتريين الأوروبيين هذا التناول في ممارستهم كمحللين أو كسايكاتريين.

.2. التناول السيكوسوماتي للصدمة النفسية:

يقترب Marty من مفهوم التحليل النفسي، فالصدمة تحدث على إثر وضعية خارجية أو حادث خارجي، دون إستثناء الأحداث الصدمية الداخلية. وتعرف بتأثيرها الانفعالي على الفرد، إلا أن المصدر الخارجي للصدمة لا يحمل لوحده قيمة موضوعية، لتحديد مدى أهمية الصدمة أو مقدار قوة الحدث.

لآن التقييم يختلف من فرد لآخر، فهو تقييم ذاتي مرجعه البنية النفسية للفرد. ويذكر مارتي جملة مشهورة:"إن فقدان كائن عزيز قد لا يكون أكثر صدمية من إحساس مثار بعبور غبار على شعاع من الشمس" (Marty, 1978, p 102).

بالنسبة لـ Marty تحدد الصدمة بشدة الاضطراب الذي تخلفه في التنظيم وليس بطبيعة الوضعية التي تحدث فيها الصدمة ويعرفها على أساس كونها اضطراب في الاقتصاد النفسي للأفراد وكونها نتيجة استثارات مفرطة للنزوات أو الغرائز، والتي يعجز التنظيم النفس . جسدي للشخص على مواجهتها....(Marty, 1992, p 78)

وهو بهذا يسجل مفهومة للصدمة في الاتجاه الاقتصادي لـ Freud، وهو يؤكد على قدرة الحدث بقدر تأكيده على قوة الدفاعات النفسية فالصدمة تنتج عن العلاقة بين الاستثارة والدفاع السيكو. سوماتي للشخص المعني. أما عن واقعية الحدث الصدمي، فوجهة نظر Marty تختلف عن التحليل النفسي في إعطاءها أهمية للحدث الخارجي كواقع معاش من طرف الفرد إلى جانب اهتمامها بالصراعات الداخلية والهوامات (الواقع النفسي).

فالصدمة تمثل ما يسميه Marty بالفقدان الجاف، ويقصد بذلك فقدان موضوع استثمر مباشرة من طرف الفرد واعتبر كوجود حقيقي، وفقدانه هو فقدان موضوعي مثل: موت شخص أو فراق، فقدان نظام زواجي، صداقة، أو فقدان مركز مهني أو رسوم دراسي (Marty, 1992, p 79) .في نفس المصدر يشير Marty إلى ملاحظاته حول إمكانية اكتشاف صدمات حياتية، وما يسميه الاصابات النرجسية، بما فيها الإصابات الجسدية التي قد تشكل صدمة.

حيث أنه قد نكتشف صدمة أو حدث حياتي في وضعية الفحص بالروائز أو بالمقابلة، من خلال الأحداث المنسية، ومن خلال كل تردد أو خلط في التواريخ والأماكن وكل تراجع أو فلتات اللسان من طرف المفحوص، أغلب هذه العناصر تحدد صدمات مهما كانت قيمتها.

أما الإصابات النرجسية فيمكن أن تعقب صدمة انفعالية مباشرة، كما يمكن أن تتبع أيضا صدمات جسدية (مرض، حادث) وتعتبر الإصابات النرجسية فقدان نوع من القوة المطلقة في هذه الحالات تكون أكثر صدمية من الإصابة الجسدية في حد ذاتها.

إذا كان Marty يولي أهمية كبرى للصدمات الحياتية التي تظهر أثناء وضعية الفحص فلكونها تشير إلى حساسية بعض الأفراد لبعض الأنماط من الحوادث والوضعيات ومستوى استثماراتهم في (المنطقة العقلية، رغابتهم، دفاعاتهم وصراعاتهم العميقة) التي تحييها الأحداث الحياتية، ضعف البنية النفسية والجسمية ومستوى الارصان النفسي وما يكشف عنه من الأعصبة (عصاب ذو عقلنة سيئة، عصاب سلوكي) (Marty, 1992).

أما على مستوى الدراسة العرضية، فإن Marty(1980) يعتبر أن الصدمات الأكثر إخلالا بالجهاز العقلي، يمكن أن نجدها ضمن الفقدان الحقيقي للموضوع والحداد le deuil الذي لم يتم إرصانه. إلا أنه يجد صعوبة في تقسيم التأثير بين الحدث الصدمي الخارجي والإصابة بالعصاب، وهو لم يمس بشكل مباشر العصاب الصدمي إثر حدث خارجي قوي والذي يتميز عن بقية الأعصبة بالتثبيت حول الحدث ومرحلة الكمون.